﴿ استنهاض همم ﴾

(١٥)

ليس الشأن كل الشأن في استقلال الامة الاداري ومستقبلها السياسي فقط فان هذا وان كان مطمح كل قيل وضالة ينشدها كل شعب وغاية تتزاحم في الاشراف عليها الامم لكن وراءه مزية دونها كل المزايا . نسبة تلك المزية الى الامة كنسبة الحياة للشخص هل يقوم المرء بدون حياة ؟ فكذا الامة لا تقوم بدون تلك المزية . اذا تقلصت الحياة عن هيكل الشخص عاد جماداً أو كان الجماد خيراً منه الجماد يقاوي الفواعل الطبيعية ويصابرها أما الشخص بعد زوال حياته فلا بقاء له بل تتلاعب به تلك الفواعل وتحلل عناصره وتمحو وجوده كذلك الامة اذا فقدت تلك المزية تسلط عليها الفناء وانغمست بالعدم . اذا نفث المرء روحه (*) لا يلبث حتى تتحلل دقائق جسمه وتفرق عناصرها فيتناولها ما احاط به من المكونات وتدخل في بنى (جمع بنية) الاجسام الاخر وهذا شأن الامة اذا زايلتها تلك المزية انفصمت عرى هيئتها وعادت افراداً متبددة تدخل في تراكيب بقية المجتمعات البشرية وتتحد بعناصر الفاتحين والمتغلبين وتلتحم باجناسهم . مزية هذا شأنها لا تعذر الامة اذا تهاملت في احتفاظها وتواكلت في توفيرها والذب عنها اي شخص لا يستميت في الذب عن حياته ؟ اي شخص لا يستبسل في الدفاع عن روحه ؟ من يرى شخصاً يعرض نفسه للتهلكة ويخاطر بحياته ولا يحكم بانه مختاط أو لا يسجل عليه بالجنون ؟

لا جرم ان استقلال الامة الجنسي هو حياتها وبدونه لم تكن الامة امة . الاستقلال الجنسي مناطه اللغة والدين فكل امة حافظت على لغتها واستمسكت بدينها كان لها ان تأمن على جنسيتها من الضياع . وكل أمة عرضت لغتها للزوال ودينها للابتذال فبشرها بانطفاء على جنسيتها قليلا قليلا وانغماسها في غمار الامم شيئاً فشيئاً . الاستقلال السياسي هو ان تحكم الامة نفسها بنفسها والاستقلال الجنسي هو ان تحافظ على لغتها ودينها . اذا فقد القيل

(*) فسر الكاتب نفث بنفخ وما رأيت هذا الحرف مستعملا بهذا المعنى ومن معاني نفث رمي الشيء من فمه وهو اليق هنا

استقلاله السياسي كأهالي الجزائر مثلا كان عليه ان يصون استقلاله الجنسي والا لم يمض عليه قرون حتى يتحول جنسه الى جنس الامة الغالبة ويدغم فيها ويسبك معها في قالب واحد. لتجتهد الامة المغلوبة في تنمية جنسها وتقوية حياته كي لا ينفعل بفعل جنس الامة الغالبة ويتضاءل امام مساورته ومغالبته فيتحول اليه ويمتزج بعناصره ويدخل في تكوينه . اذا سدك الحيوان (لبث ولزم) بارض ملاحة وافترش معدنها الملحي زمناً طويلا تبقي له هيئته الحيوانية مادامت فيه حياة فاذا زالت حياته يقوى حينئذ عنصر الملح على جسمه ويغلب على مواده وعناصره ويحول كل ذلك الى عنصره الملحي ويصير ذلك الحيوان جرما معدنياً بعد ان كان جسما آلياً . هذا اجلى مثال نضربه للامة التي تحافظ على حياة جنسها والامة التي تهمل ذلك او تقصر فيه . اذا تغلبت أمة على اخرى وابتزت استقلالها السياسي وملكت عليها أمرها كانت كمن استرق الآخر وحجر عليه اما اذا عملت في ضعضعة دينها واستئصال لغتها لتتوصل بذلك الى محو جنسيتها كانت كمن يقتل الآخر ويسلبه حياته . اذا فرط المرء بحريته وتوانى في صيانتها حتى اختاسها العدو واستعبدها فالاحجي به حينئذ ان يجد في حفظ حياته وتنمية قواها لعله يتوصل به يوما ما لاسترداد حريته ومعاودة استقلاله . وما أشد حمقه لو فرط في الحياة أيضاً ومكن العدو من الصيال عليها واعفاء أثرها . اذا زالت حياة الانسان لا يمكنه استرجاعها بله استرجاع حريته . لاجرم ان يكون مثل الامة التي تتوانى في حفظ جنسيتها كمثل ذلك الاحمق الذي يلقي بنفسه في الهلكة ويعرض حياته للخطر وبالجملة يجب على الامة صيانة جنسيتها وبذل اقصى الجهد في مقاومة المتعرض لثلمها كما يجب على الشخص ان يتذرع بكل ما لديه من الوسائل لحفظ حياته ولو ببذل حياته . نعم ان الكريم يموت حراً ولا يموت صبراً

واذا لم يكن من الموت بد فمن الموت العجز ان تموت جبانا

الفرنسويون في الالزاس واللورين يغلون غلواً كبيراً في حفظ جنسيتهم الفرنسوية كما هو شنشنة الالمانيين في البلاد النمسوية مع ان وراء كل قبيل منهما امة موطدة الاركان ودولة مشيدة البنيان. تعمل كل من تينك الامتين في تأييد جنسيتها والباس ردائها لكل من تصل اليه يدها فكم هو خليق بالمسلمين ان يجتهدوا في حفظ جنسيتهم ويعملوا في توثيق

عرى دينهم وتمديد سرادقات لغتهم وليس لهم من الحكومات حكومة ثابتة الاساس عاملة على نشر الدين وحمايته وصيانة اللغة العربية من الضياع والاضمحلال . لعمري ان اوجب مايجب عليهم ان يتفانوا في صيانة جنسيتهم ويتقحموا المخاطر في سبيل حفظ دينهم ولغتهم والا غشيتهم من الطمطمانية ظلم وتلاطمت فوقهم امواج العدم والعياذ بالله

فرنسويو الالزاس واللورين لو اكرهوا على التجرد من الجنسية الفرنسوية والاصطباغ بالصبغة الالمانية لاستحبوا الموت وتجرعوا كأسه دون ما اكرهوا عليه مع انهم لو تجلببوا بالجنسية الالمانية كان لهم بعض التسلية والعزاء لانهم يعلمون ان الجنسية الفرنسوية لها رجال على ضفاف السين يخدمونها خدمة العبد الامين لسيده . يعلمون ان الجنسية الفرنسوية تتألق شمسها في ربوع فرانسا تألق شمس الضحى في سمائها لا يعتري تلك افول أو تكور هذه وتنسلخ عن اضوائها . يعلمون ان الجنسية الفرنسوية تبعث اشعتها من فرنسا وتمتد الى كثير من أطراف المعمور وتخلل في ظلمات افريقيا الغربية يعتقدون انها عما قليل تحول ليلها نهاراً وغياهبها انواراً

هذا شأن القول في الحمس الوطني والغيرة على الجنس . ترى ماذا يجب ان يكون شأن احد الشعوب الاسلامية لو عدا عاد على جنسيته وحاول مسها والعبث بها ؟ اما يجب عليه ان ينتهب ويتبختر تأمور قلبه (دمه) حمية في الدفاع عنها وصيانة استقلالها وهو يعلم ان كل قبيل من بني جنسه معرض مثله لضياع الجنس وفساد اللغة وليس ثمة دولة حية تعمل في تنمية الحياة الاسلامية وتقوية جنسيتها الدينة واللغوية . فقد تبين للسائل الآن ان العمل والجد في الاصلاح لا مندوحة عنه ولا هوادة فيه وهو واجب متعين على كل من له قدرة على العمل سواء سلم للامة استقلالها السياسي والاداري أو لم يسلم لها شيء من ذلك كما في البلاد التي ملك عليها امرها الاجنبي . فكل جماعات الامة يلزمها النظر في الاصلاح لتحفظ جنسها وتصون دينها كي يتسنى لها فيما بعد التفلت من احبولة الاستعمار والانطلاق من مطمورة الرق والعبودية